الشيخ ابرهيم اليازجي اللبناني

(٢) النثر

تحدّى اليازجي كبار الكتبة ومتقدميهم ولكنهُ تفرّد باسلوب خاص كان من مبادئهِ إقرار كلّ كلة في نصابها مع حسن اختيارها وتلك خطة انتهجها بعض المتقدمين ولاسيما ابا عبادة البحتري الذي سميت اشعارهُ بسلاسل الذهب كيف لا وهو القائل

واللفظ حلي المعنى وليس يربك الصدرُ حسناً يربكهُ الذهبُ

ولكنهُ كان ينشد مع الشاعر القائل :

وأعطيتُ طبع البحتري وشعرهُ فمن لي بمال البحتري وعمرهُ

فكان المترجم إذن في كتابتهِ اشبه بالسائك (ضارب النقود) الذي يطرح الزيوف فلا يخرج من سبكهِ الاّ ما كان ظاهر النقوش واضح الكتابة لا تنفي يد الانتقاد شيئاً منهُ او كالمصوّر الذي يعالج الرسم الى ان يمثل اصلهُ بجميع ملامحهِ ونقاطيعهِ وهيآتهِ فلا يشتبه أمرهُ ولا تلتبس معرفتهُ على رائيهِ وبهذا تجد في كلامهِ شفافة وحسن رصف وعلى الجملة فانهُ كان يؤدي المعنى البليغ باللفظ الفصيح مع مراعاة العلاقات بينهما فكان كلامهُ من السهل الممتنع لا يقف عندهُ الذهن حائراً ولا يحوم عليهِ خيال الفهم طائراً بل يتشرّبهُ الذهن وينتقل من طريق البصر او السمع الى القلب فيضرب على اوتارهِ بمضراب الطرب ويحدث في النفس ارتياحاً ولذة ذلك مع صعوبة النسج على منوالهِ وقلّ من توصّل الى هذه الطريقة المثلى والخطة المثلى غير نفر من جهابذة المنشئين وفرسان الكلام كالأصبهاني في الاغاني وابن المقفع في كليلة ودمنة والخوارزمي في رسائلهِ والمسدّاني في مقاماتهِ وابن خلدون في مقدمتهِ والبحتري في منظومهِ وان شئت فقل والدهُ في اشعارهِ

وكان مع ذلك اشبه بالصاحب ابن عباد الذي كان يكتب كما يريد لا بالصابئ الذي كان يكتب كما يؤمر او كما يراد فارقص لثرهُ الالباب ورنح اعطاف قارئيهِ كأنهُ نسمات الاسحار تناجي عذبات الافنان ورقّ كلامهُ على صفحات القلوب كأنهُ سنة انكرى ترنق في مقلة الوسنان. واحسن ما يوصف بهِ انشاؤهُ انهُ كان "واضح المنهج سهل الاسلوب خالياً من الحشو والتعقيد مع حسن اختيار الالفاظ وتوخي المأنوس عنها في النثر والنظم" وتلك عقبة كؤود في سبيل الكاتب العصري اذ "لا يخفى ان اللغة اليوم قد اصبحت كأنها لغة قوم آخرين لذهابها من الالسنة من عهد عهيد وإبداعها بين الواح من الصاحف لا

تبدي ولا تعيد فما على الدارس ان يحفظ من تلك المفردات المشتقة والمعاني الجزئية التي يعقم بها الذهن ويضيق من دونها الذكر ثم ما على ان يثبت في محفوظاته من تلك الصور المرسومة على الالواح تمرّ بطرفه مرّ السحاب وهو في كل يوم يقرع سمعه ويتكرر عليه من اللفظ المحرّف والكلام الركيك ما يذهب بذلك الاثر المجازي الذي ينطبع في خياله عن طريق الباصرة . ألا وان اللفظ انما وضع ليكون مسموعاً لا منظوراً والمختاصة انما هي الاصوات الناطقة لا الرسوم الصامتة فكيف يتأتى لهذه المناجيات السرية ان تغلب على تلك المناغيات الجهرية مع توارثها على حواسه في المباشرات اليومية والمحادثات البيتية لا ينطلق لسانه الا بها ولا يجري في خاطره الا صورها ولا يرنّ في صماخه الا صداها . . وبهذا يتميز كتّاب الاعاجم على كتّابنا فان الكاتب منهم لا يكلف في الالفاظ والتراكيب صوراً غير ما يجري به لسانه في المخاطبات المألوفة فالمترسل منهم والخطيب والكاتب والامي والشيخ والغلام لهم لغة واحدة لا تتفاوت الا في المعاني ووجوه الخطاب وسائر القوانين اللفظية واحدة لا تتغير الا على جهة التأنق في المنطق وطلب الايجاز او الاطناب بما هو من صنعة البياني واسلوب الخطيب اه "

اما نثره في لوائح كلامه فشجري الاسلوب وكثيراً ما يكون مجعاً رصيناً "اذ السجع نوع من الشعر لا يحسن الا في مقامات التخييل وحيث يتلاعب المنشىء بضروب المعاني فيأتي بالاستعارات والكنايات وغير ذلك من فنون التعبير" فكانت مقالاته "عارية من هذا السجع الثقيل الذي يلتزمه اكثر المؤلفين في هذا الفن وغيره لقصورهم عن اجادة الكلام المرسل فيموهون على الاسماع بتلفيق تلك الاسجاع مما يقطرهم احياناً الى اتيان ما لا داعي له من السياق فيخرج بالكلام عن المقصود او يشوّش المعنى على السامع بكثرة ما يرد عليه من التخليط" ومن اسجاعه المتينة ما صدّر به مقالاته في الثمر والزهرة ومصير الارض والانهار ووداع القرن والريح والحرب الخ مما كتبه في مجلته الضياء فلذلك ترى كثيراً من المطالعين تناولوا معانيه فيها وادخلوها في منظومهم فما عقده مصطفى بك نجيب فقرات من رثاء الفيلسوف جمال الدين الافغاني في مجلة البيان وسبكه بابيات رشيقة منها قوله :

نعت النعاة بهجة الدهر وخلاصة الأحساب والفخر
ليت المنية اخطأت رجلاً حملت به نارٌ من الفكر
"دبّت على مجرى فصاحته والدة بين الفك والنحر"
"عجبٌ لما نعلت ولا عجبٌ ان يسكن السرطان في البحر"

وألمّ ابن شقيقتهِ الشيخ نجيب الحداد ببعض ما في مقالة (المقامات) في مجلة البيان وذلك بقصيدتهِ (القمار) المشهورة ولا سيما قولهُ :

هو الداء الذي لا يرتجى منهُ ... وليس لذنب صاحبهِ اغتفارُ
تشاد لهُ المنازل شاهقاتٍ ... وفي تشييد ساحتها الدمارُ

وكذلك الاستاذ احمد افندي سمير بقصيدتهِ (القمار) ايضاً خصوصاً قولهُ :

وغرّهم قمرٌ لاحت بوارقهُ ... في ظلمة العيش فاستهوتهمُ غررا
جرّوا البلاء بايديهم لانفسهم ... ثم انثنوا يعتبون الحظ والقدرا

وعقد الشيخ نجيب الموما اليهِ في قصيدة القمر بعض ما سبق وصفهِ للترجم في مقالة لهُ بالبيان اخصها قولهُ :

جنازة ميّت لا نعش فيها ... ولا أبدٍ حملنَ ولا أنينُ

وسبك جرجي افندي شاهين عطيه فقرة مما في مقدمة البيان بقصيدة لهُ قال في احد ابياتها

فصادوا الصوت في قفص كطيرٍ ... ولم اعهد بصوت أن يُصادا

وتناول كاتب هذه المقالة معنىً من تلك المقدمة وادمجهُ في قصيدتهِ (رجل العصر) المنشورة في المجلة نفسها بقولهِ في الشطر الثاني من هذا البيت :

أذلّهُ الجاذبية سيفي قيودٍ ... كما اصطاد الصواعق بالحبابِ

اما نثرهُ المرسل فانهُ آية البلاغة ونجمة الرائد وقلما كتب مقالة ولم يتناهبها الكتّاب للنسج على منوالها ولا سيما اوضاعهُ اللغوية ومعظم المقالات التي تبعث اليهِ لينشرها في مجلتهِ كان يسبها قممهُ وكثيرًا ما يفرغ بعضها بقالب القاطهِ حتى تتمّ عليهِ وهذا الذي حمل بعضهم على القول بان مقالاتهِ كانت متوحدة وآخذهُ على هذا التصرف الذي يخفي شأن الكتبة لان الانشاء هو الانسان كما قال بيفون. ولعلّ أشل ما حملهُ على ذلك تحذيرهُ من تناول الاغلاط عن طريق المطالعة لشدة حرصهِ على حفظ اللغة وابعاد الكتبة عن الوقوع في حبائل الخطأ كيف لا وهو القائل : " فليراقب كتّابنا الله فيما يملون على الامة وليعلموا ان ما يخطّونهُ في خلواتهم انما يجرون بهِ اقلامهم على صفحات قلوب تنطبع فيها كلماتهم بحروف لا تمحى فليكن ما يطلبونهُ فيها الخير وليكونوا من هداة الامة الى الصلاح ليحسن أثرهم فيها ولا تلزمهم تبعتها يوم لا ينفع مال ولا بنون " والصادع في محل آخر بقولهِ " ان المرء في اول قرعهِ لباب الشعر والانشاء وتسليمهِ على تحضر الادب قد يدفع نفسهُ الى ما وراء موقفها ويكلّف

مخيبة ما ليس في مطبوعها تأنقاً في الخطاب وترخيماً لمواقع الاحسان والاعجاب وربما نزع الى تقبيل بعض الكراس من امن خطته ومن وقع في نفسه منهم موقعاً جليلاً فيتطوع على آثاره ويطبع على غراره تدرجاً الى مماثلته وتبوئه مثل مقامه في الصدور وهذا انما يفيح حيث يوافق شبهاً من الذوق وميلاً من الطبع فيتلبس بمختلبه حتى يدير مع التكرار ملكة راسخة"

وله رسالات بليغة نشر بعضها في دليل الهائم الذي صححه كما مرّ . واليك الآن مثالين آخرين من رسالتين احداهما جواب كتاب بعث به اليه الكنت كرلو لدبرج الوكيل السياسي لدولة اسوج ونروج بالقطر المصري يهنئه بنوط (مدالية) العلوم والفنون الذي اهداه له الملك اسكار الثاني المتوفى حديثاً وذلك على اثر المؤتمر الشرقي الذي عقد في استكهلم سنة ١٨٨٩ م فاجابه برسالة طويلة منها " وقد تشرفت ببزوغ اشعة النوط المشار اليه شمساً باهرة اللألاء . طالعة من زرقة ياطو تحت سماء صافية الارجاء . ممثلاً عليه صورة مولانا الملك المعظم ما طأطأت له مهابة وإعظاماً . واكبرته الا ان امسه بالشفاه لثماً او بالجبين استلاماً . وغبطت نفسي على ما انفقت من العمر في خدمة ساقت اليّ مثل هذا الثواب . واسلتني ما افنيت فيها من شبابي حتى كأنها ردّت عليّ ايام الشباب . فانا وان قصر لساني عن ايفاء هذه النعمة حقها من الثناء . مستظهر على وفاء بعضها باقامة فروض الدعاء . على ان ربها غنيٌّ عن ثنائي بمحمد الوفير من ام المشرق الذين احيا مجدهم بعد اذ جعله الدهر هباء منثورا . واخص منهم بقية هذه الامة العربية التي جعلها بعد خمولها شيئاً مذكورا . وقسم لها من المباهاة بين سائر الامم سهماً موفوراً " . والثانية رسالة بعث بها الى احد كبار المشايخ يعزيه بفقد شقيقه فيها : " وانا في موقف يكتنفه من جسامة الخطب ما تتقاصر عنه كلمات العزاء . ومن مهابة الشيخ ما تصلد عنده خواطر البلغاء وتتلجلج السنة الفصحاء . فما عساني ان افيده من الذكرى وقصاراي ان اخاطبه بما استفدت من اقواله . او اتلو عليه من جوامع الحكمة ولو أوتيت حكمته وبيانه ما زدته شيئاً بالدهر واحواله . " الى ان قال : " ولقد عهدت الشيخ من ارق الناس فؤاداً . وارعاهم لذمي صلة وداداً . ولكني بلوته من ارصنهم حلماً حين تستخف الاحلام . واوفرهم حصاة اذا صمت صمام . فهو بالاولى احرى الناس بان يشاركهم فيما نابه . وبالثانية احقهم بان يتقدمهم في الصبر والانابة . وانا أعوذ بعلو رأيه وكمال نبله . ان يدبل طبعه من عقله . وان يجاري الناس في نقصهم وهم لا يجارونه في فضله " وهكذا عارض برسالاته جهابذة المترسلين و بلغاء المتقدمين ومن مزاياه انه كان يكتب المقالة او القصيدة ثم يتركها اياماً ويعود اليها فينقحها

ويقدمها الى المطبعة وربما كرّر النظر فيها مراراً قبل طبعها وهكذا يفعل بالنسخ المطبعية (البروفات) فانهُ كان يصلحها ويضمها تحت المراجعة ولو يوماً واحداً فيعيد النظر فيها وربما كرّر ذلك مراراً الى ان يأذن بطبعها فتخرج خالية من الاغلاط تقية الدياجة . وقد اخبرني بعض المنقدين انهُ كان يراجعهم بالشيء القليل مراراً حتى كانوا يتبرّمون منهُ . ولا بأس ان نلمّ الآن بذكر مؤلفاتهِ ومصححاتهِ واوضاعهِ فنقول :

ان من اقدم ما نسج بنانهُ الطب القديم واللغات السامية وادب المدارس بعد المدارس والاستدراك على المرقومين تخلّع البسيط وانهُ يرجع الى المنسرح وكلها خطب القاها في المنتديات المدرسية والجمعيات العلمية . ولهُ (مطالع السعد لمطالع الجوهر الفرد) وغيرهُ . ومن اهم اعمالهِ (العرف الطيب) وهو شرح ديوان المتنبي باسلوب مفيد بالغ حدّ تهذيبهِ وتقريبهِ ولهُ فيهِ تحقيقات كثيرة . ومنها (نخبة الرائد) وقد طبع منها الجزئين الاولين وطوى الثالث وبشهرتها غنىً عن اطرائها و (مجلة الطبيب) سنة ١٨٨٤ التي انشأها مع زميلهِ زلزل وساعده ومجلة (البيان) سنة ١٨٩٧ بشركة احدهما زلزل ولم تلبث كل منهما اكثر من سنة وآخرها (الضياء) من سنة ١٨٩٨ الى ١٩٠٦ م وفي جميعها مقالات شائقة كالامالي القهوية في الطبيب واللغة والعصر في البيان والمجاز في الضياء وجميعها ترمي الى غرض واحد وقد اورد في تضاعيفها فوائد لغوية كثيرة واوضاعاً مفيدة . وقد بقي منها " الفرائد الحسان من قلائد اللسان " وهو معجم نبذ منهُ الالفاظ الوحشية واللغات المتروكة وزاد عليهِ الالفاظ المأنوسة الموافقة لحاجات العصر استخرجها من نحو عشرين الف صفحة من كتب المؤرخين وعلماء الأدب ممن يصح الاقتداء بهم وقد تم بعض حروفهِ الاولية والباقي من معظمهِ هوامش واوراق منثورة وكان قد عقد النية على التفرغ لهُ واتمامهِ في الايام الاخيرة فاعجلتهُ المنية

ومن مصححاتهِ (الكتاب المقدس) الذي عربهُ الآباء اليسوعيون في بيروت واختصارهُ ارجوزتي والده نار القرى والجمانة وتجديد طبع دواوينهِ ووقوفهُ على ما طبعهُ المرحوم شاكر البتلوني ولاسيما دليل الهائم ونفح الازهار وما ألفهُ المرحوم جميل المدوَّر في تاريخ بابل واشور وما شرحهُ الاستاذ شاهين افندي عطيه من شواهد نار القرى في كتابهِ (عقود الدرر) و (تحفة الورود في المقصور والممدود) من مؤلفات ابن مالك و (رسالة الغفران) للمعري . ومما نشرهُ في مجلاتهِ رسالة حي ابن يقظان وتدبير المنزل لبروسوس وعمدة الصفوة في حل القهوة للشيخ عبد القادر الانصاري ونشر الوصايتين السينية والشينية وبعض القصائد النادرة

مما استنسخهُ من مكاتب اوربا وغيرها . وانتقد تكملة المعجمات العربية لدوزي الهولندي والاغراماطيق العربي الانكليزي لبعض علماء الانكليز وتاريخ الادبيات العربية لكليمان هوار الفرنسي وانتقد طبع لسان العرب واظهر ما فيهِ من الغلط اللغوية ونظر في مربعة ابن دريد وشرحها وكتب في لغة الجرائد في اوائل اشتغاله بالضياء واستأنف ذلك في سنواتها الاخيرة وأظهر في مقالات اخرى اغلاط المولدين واغلاط العرب وكتب في العلوم عند العرب وفي الشعر والنثر العربي واللغة العامية والفصحى وكل ذلك من دقيق مباحثهِ وأنيق انشائهِ

اما اللغة فكان نسيج وحدهِ في الوقوف على اسرارها فكأنها كاشفتهُ بها ولهُ فيها استنباطات دقيقة وضعاً وتعريباً واساليب رشيقة نظماً ونثراً ومآثر سديدة في احكامها وكأني بمناقشتهِ للعلامة احمد فارس الشدياق بعهد صباهُ في مجلة الجنان استلفتت اليها ابصارهُ فاعارها جانب اهتمامهِ واعتنى بالتدقيق في اصولها وفروعها فأرهف لها قلمهُ وألاق دواتهُ ولما تولى انشاء مجلة الطبيب مع زميليهِ كان قد تمكن منها فزادتهُ المباحث اللغوية تبسطاً فيها ولا سيما عندما تفرغ لتأليف (نجعة الرائد) و (الفرائد الحسان) وما عقب ذلك من المباحث

ولقد انتبه في اثناء وضعهِ لكتاب نجعة الرائد ومجمع الفرائد الحسان وعند تقليبهِ كتب اللغة ومعاجمها الى كثير من الاوضاع التي اغفلتها المعجمات كنقلهِ عن ابن خلدون الهداية بمعنى الحكمة المخلوقة في الحيوان والتأنس في مقابلة التوحش والملكة للهيئة الراسخة في النفس ومثلها المآخذ والمشارك واهل مائدة الرجل والوزع لجمر الضرائب والبنى في مطاوعة بنى وماء مثلوج قد أذيب فيهِ الثلج والاخباريون لنقلة الاخبار والمخدوم بمعنى السيد الخ — " ومن كشف الظنون للحاج خليفة علم الريانة اي اكتشاف الماء وصاحبهُ ريانيٌّ أو تنقن جمعه قناقن " وكثيراً ما يردّ الكلمة الى نصابها العربي مثل تسمية جزيرة سيلان بسرنديب كما اوردها العرب ونثرات السوداء بالنطرون كما عربها اطباؤهم واعناق الخيل الشبيهة بنصل السيف بالمسيفة كما اوردها الاصمعي في كتاب الخيل والعربة بمعنى عجلة الركاب عن ابن بطوطة وعلم الحيل (الميكانيك) وعلم المواليد الثلاثة . واسترسل الى تحقيقات كثيرة نفرية قلَّ من انتبه اليها غيرهُ مثل الفاظ الكهرباء والبيض النرشت في الطبيب والالماس في البيان وحمام الزاجل في الضياء وكثير غيرها . وأثرَّ كثيراً من الالفاظ التي وضعها غيرهُ مثل المنطاد والمجهر والمرقب

ولقد اشتغل بالوضع ولم يكن يعتقد بوجوب وضع الفاظ عربيةٍ لكل كلمة اجنبية كما يتوهم بعضهم بدليل قولهِ في الضياء ٨ : ٧٧ ا : " واما ان ادخال كلمات اعجمية الى لغتنا

يعدُّ دليلاً على ارتقائها ففيهِ نظر لكنهُ مما تلجئُ اليهِ الضرورة حيث لا يتيسر وجود لفظ عربي قديم او محدث يقوم مقام الاعجمي والاَّ فان ادخال اللفظ الاعجمي مع وجود لفظ عربي بمعناهُ كاستعمال الاورطي مثلاً في مكان الأبهر والألبومين مكان الالح والجيلاتين مكان الهلام والكاوتشوك مكان المطَّاط والأسيد مكان الحامض ... كل ذلك يعدُّ دليلاً على انحطاط اللغة كما لا يخفى على ذي بصيرة" — وقد انصف اللغة العربيَّة بقولهِ في تضاعيف مقالة اللغة والعصر (البيان صفحة ٣٢١) : " ولكن حقيقة الكمال في اللغة ان تكون بحيث يمكن ان يستنبط من نفس اوضاعها الفاظ لما يحدث من المعاني لا لن تكون بحيث تستغني عن المزيد اذ المعاني ابدًا تتجدَّد وليس من المحتمل ان قومًا يضعون الفاظًا لمعانٍ لا توجد" ومن مقرَّراتهِ " ان القاعدة في اصول علم الوضع أن يستنبط الاسم من طريق المجاز او الاشتقاق " الى غير ذلك عيسى اسكندر معلوف

اسلوبنا في التعريب

سئلنا عن الاسلوب الذي يجري عليهِ في التعريب اي في ترجمة الكلمات الاعجمية او نقلها الى العربيَّة . وكان يجدر بالسائل ان يتوسع في السؤال حتى يشمل التعبير عن بعض المعاني التي لم تخطر على بال العرب فان تعريبها او التعبير عنها بالعربيَّة لا يخلو من مشقة قد تزيد على المشقة من نقل الالفاظ او ترجمتها . ويسهل ارجاع الاساليب التي جرينا عليها في الترجمة والتعريب الى القواعد التالية

﴿ القاعدة الاولى ﴾ الكلمات الاعجمية التي نعرف لها كلمات عربيَّة ترادفها نترجمها بمرادفاتها

ونريد بالكلمات الاعجمية الكلمات التي من اللغات الاوربية وبالكلمات العربيَّة كل ما رأيناهُ في كتب اللغة والادب جاريًا على الاوزان العربيَّة ولو كان اصلهُ يونانيًّا كقلم او فارسيًّا كابريق او سريانيًّا كقيس او قبطيًّا كسلطان او حبشيًّا كشكاة . وكل ما كان كذلك ولم يكن جاريًا على الاوزان العربية كالاسندرا وجندبدمتر وقنطاريون

ولهذه القاعدة شواذ قليلة فلا شواذ في الافعال اي اننا لا نستعمل فعلاً اعجميًّا اذا وجدنا لهُ فعلاً عربيًّا

ولا شواذ في الحروف الاَّ في ده الفرنسوية واوف الانكليزية ونون الالمانية في مثل